

الدور الجيو-سياسي للمستشرقين والرحالة في تمهيد الطريق للمشاريع الغربية في العالم الإسلامي (دراسة تحليلية)

مقدمة

م.د. أنوار كريم نجم الطائي (*)

الدول والحضارات. ومن هذا الجانب جاءت هذه الدراسة لإعطاء صورة واضحة، عن الاستشراق البريطاني الذي شكل نموذجاً فريداً يجسد التفاعل المعقد بين المعرفة والسلطة، حيث تمازجت فيه دواعي الفضول العلمي بمتطلبات الإدارة الاستعمارية ومصالح الإمبراطورية، فينقسم هذا البحث إلى مقدمة وثلاث مباحث رئيسية المبحث الأول الذي تناول البدايات المبكرة للاستشراق، اذ مثل الاستشراق ظاهرة فكرية وحضارية معقدة، تجسدت عبر مراحل تاريخية متعاقبة، كان أبرزها مرحلة النشأة والتأسيس التي ارتبطت بالسياقات الدينية والسياسية والفكرية لأوروبا الوسيطة، فيسعى هذا المبحث إلى تتبع الجذور الأولى للاستشراق، اما المبحث الثاني فتضمن أولاً: بين النقد والحفظ الوجه الآخر للاستشراق البريطاني في التعامل مع التراث الإسلامي، فيتناول هذا المطلب الدور المزدوج للاستشراق البريطاني،

شكّلت ظاهرتا الاستشراق والرحلات، منذ قرون، أحد أهم الروافد المعرفية التي اتكأت عليها الحضارة الغربية في تشكيل تصوّراتها عن «الشرق». وعلى الرغم من الطابع الأكاديمي والعلمي الذي غالباً ما رُوِّج له حول هذه البعثات والدراسات، إلا أن الخط الفاصل بين السعي المعرفي المحض وتلبية الأجنداث الجيوسياسية والاستخباراتية كان خطأً واهياً في كثير من الأحيان. لم يكن المستشرق أو الرحّالة مجرد باحث منعزل في برج العاجي، أو مُغامرٍ ساعٍ للتشويق فقط، بل يمكن تحليله - في كثير من الحالات - ك«وحدة استقلالية» متحركة. كان هؤلاء الرجال بمثابة «أجهزة استشعار» متقدمة للحكومات والجمعيات الجغرافية والمؤسسات الاستعمارية الأوروبية، يجمعون البيانات الخام من الميدان ويحولونها إلى «بطاقات استخباراتية» عملية. غطت هذه «البطاقات» مجالات شتى: طوبوغرافيا الأرض ومسالكها، وخرائط الثروات والموارد، وتشريح البنى الاجتماعية والسياسية والدينية للمجتمعات، وتقييم مواطن القوة والضعف في

(*) جامعة المثنى / كلية الهندسة.

تضمن دراسة حالة تشارلز دوتي - بتحليل معمق لشخصية وتجربة الرحالة الإنجليزي من خلال ثلاث محاور اولاً الخلفية الأسرية والتكوين العلمي اذ يتحرى هذا المحور البيئة الاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها دوتي، وتأثره بالروح الرومانسية والاهتمامات الكلاسيكية والجغرافية في عصره، وكيف مهدت هذه العوامل لرحلته الاستثنائية. ثانياً التكوين المعرفي لكتاب ترحال في صحراء الجزيرة العربية، اذ يحلل هذا المحور البنية المعرفية لرحلته الموسوعية، وكيف مزج دوتي في كتابه بين السرد الأدبي الرصين، وبين الملاحظة الأثروبولوجية الدقيقة، والمسح الجغرافي، والاستقصاء اللغوي، مما انتج نصاً هجيناً يتجاوز كونه مجرد تقرير سفر، ثالثاً: رؤية دوتي لبوّة مُحَمَّد (ﷺ) بين التأويل البشري والأيمان بالوحي، اذ يناقش هذا المحور تصور دوتي المركب للنبي مُحَمَّد (ﷺ) والإسلام والذي فرق بين النزعة الإنسانية التاريخية التي حاولت فهم الظاهرة النبوية في سياقها المجتمعي، وبين القناعة المسيحية العميقة التي منعت من تجاوز إطاره اللاهوتي، مما يجعله نموذجاً لصراع المنهج والنزعة في فكر العديد من المُستشرقين . وايضا خاتمة تضمن ابرز النتائج التي توصلت اليها الباحثة من خلال موضوع البحث.

الذي جمع بين النقد التاريخي - النصي للتراث الإسلامي من ناحية، وبين جهود الحفظ والتحقيق والنشر لنصوصه الأساسية من ناحية اخرى، ثانياً تضمن الرحلات الأوربية والوساطة الاستشراقية: اذ ركز هذا المطلب على دور رحلات المستكشفين والمُستشرقين البريطانيين وغيرهم إلى شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر في تشكيل المعرفة الغربية عن المنطقة، اذ لم تكن هذه الرحلات مغامرات فردية فحسب، بل مثلت وساطة ثقافية نقلت من خلالها التفاصيل الجغرافية والاجتماعية والدينية إلى القارئ والمخطط السياسي الأوربي، مساهمة في بناء أرشيف استعماري ضخم. ثالثاً الذي تضمن الرحلات ذات الطابع الاستخباراتي التجسسي الذي يخدم المصالح السياسية، اذ يكشف هذا المطلب عن الوجه الخفي للاستشراق المتمثل في الرحلات التي نفذها جواسيس ومستكشفون تحت غطاء علمي او ديني، اما البحث الثالث فكان يتضمن الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية ودوافع علمية واسهامات في المعرفة الاستشراقية، اذ تضمن الحديث عن الرحالة الذين يعملون بضوء خافت لخدمة المصالح الاستعمارية، اذ انطلق اخرون بدوافع علمية خالصة او شبه خالصة، سعياً وراء المعرفة الجغرافية واللغوية والآثارية فسعى هذا البحث إلى تحليل إسهامات هذه الفئة من الرحالة العلميين في توسيع افاق المعرفة الاستشراقية عن الجزيرة العربية. فأولاً

المبحث الأول

البدايات المبكرة للاستشراق

لا يستطيع أي باحث جاد في حقل الدراسات الاستشراقية - سواءً تعلق الأمر بفتراتها المبكرة أو المعاصرة - أن يتجاهل دراسة الاستشراق بوصفه ظاهرة ثقافية شاملة. فآثاره تتجاوز بكثير حدود الغايات المعرفية المجردة، فالمعرفة وإن كانت هدفاً رئيسياً في كثير من السياقات، إلا أن الظاهرة الاستشراقية تظل عصية على الفهم دون اعتماد رؤية كلية تستقصي حركتها الثقافية والفكرية، وتكشف عن تناقضاتها كتعبير عن مواقف نفسية راسخة في أعماق الوعي الجمعي للإنسان. ومن هنا، احتلت مسألة نشأة الاستشراق مكانة مركزية في اهتمامات المتخصصين في هذا المجال، لما لها من دور محوري في فهم تطوره وتشعباته^(١)، فبعض الباحثين منهم مصطفى السباعي في كتابه الاستشراق والمستشرقون، أكد على مسألة تعذر تحديد بداية دقيقة للحركة الاستشراقية حيث قال: «لا يعرف بالضبط من هو أول عربي عني بالدراسات الشرقية، ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس إبان عظمتها ومجدها، إذا كانت فترة فتح المسلمين للأندلس من أبرز فترات التأثير الحضاري الإسلامي في الحضارة الغربية، ومنعطف هام في تاريخ الاستشراق، بل ويرجح العقيلي وغيره من الكتاب الرأي القائل بأن: «الاستشراق بدأ من الأندلس إبان عظمتها ومجدها في القرن الثامن الميلادي، حيث اختلط

غير المسلمين من أوروبا ومنهم الرهبان بالمسلمين في الأندلس، وتقفوا في مدارسها، وتعلموا على علماء المسلمين في مختلف العلوم، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات، ومن أوائل الرهبان الذين قصدوا الأندلس للتعلم الراهب الفرنسي (جربر دي اورلياك (٩٣٨-١٠٠٣م)) الذي أنتخب بابا لكنيسة روما عام ٩٩٩م، بعد عودته من الأندلس، وتسمى بسلفستر، وجيرار دي كريمون (١١١٤-١١٨٧م)، وغيرهم الكثير من الرهبان^(٢)، يُقدم صاحب كتاب «الاستشراق برؤية شرقية» أطروحة فكرية محورية تُعيد النظر في التأسيس التاريخي لظاهرة الاستشراق. حيث يرى أن التأثير الحضاري والمعرفي العميق للمسلمين في الأندلس - والذي تجلّى في مجالات العلوم، الفلسفة، الآداب، والهندسة المعمارية - شكّل اللحظة التأسيسية الأولى والمنعطف الحاسم في تشكيل صورة «الشرق» في المخيال الغربي. وتقوم هذه الأطروحة على فرضية مفادها أن الاحتكاك المباشر والمتواصل للحضارة الأوروبية الناشئة مع الرقي الحضاري الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية، لم يكن مجرد ناقل للمعارف من الشرق إلى الغرب في إطار ما يُعرف بحركة الترجمة، بل كان أيضاً الحافز الرئيسي الذي دفع النخب الأوروبية إلى محاولة فهم، استيعاب، وفي مراحل لاحقة، احتواء وتشبيء هذه «الأخر» الحضاري المتفوق آنذاك^(٣). وبالتالي، يرى الكاتب أن هذا التفاعل - الذي جمع بين الإعجاب والتنافس والرغبة في المحاكاة - مثل البداية الفعلية والجذر التاريخي للاستشراق، حيث

الدور الجيو-سياسي للمستشرقين والرحالة

واضح على سيطرة النموذج الحضاري الإسلامي على المشهد الفكري آنذاك^(٦).

تشكل مسألة تحديد البدايات التاريخية لظاهرة الاستشراق (Orientalism) إشكالية historiographical (تاريخية) محورية، حيث تتباين الآراء تبعاً للمعايير المعتمدة في تعريف الظاهرة ذاتها. وفي هذا الصدد، يشكل العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وخصوصاً فترة القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، محطة جوهرية في هذه المناقشة. الرأي الأول: القرن العاشر الميلادي ونشأة الاستشراق كاهتمام علمي يذهب عدد من الباحثين إلى أن القرن العاشر الميلادي يمثل البداية الحقيقية للاهتمام الغربي (الأوروبي) بالشرق، ليس بوصفه كياناً دينياً فحسب، بل كمصدر للمعرفة والعلم. ويرتكز هذا الطرح على معيار "التبادل الثقافي والاستيعاب النشط". فخلال هذه الفترة، وتحديدًا في ظل حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في قرطبة، شهدت الأندلس ذروة ازدهارها العلمي، حيث أصبحت حاضرة عالمية للعلوم والفلسفة والآداب، وفي هذا السياق، بدأت أولى حركات الترجمة المنظمة من العربية إلى اللاتينية على أيدي رهبان ورحالة أوروبيين، أتوا إلى مراكز العلم في الأندلس طلباً للمعرفة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك الراهب جيربرت أوف أوريك (الذي أصبح البابا سيلفستر الثاني لاحقاً)، الذي درس في الأندلس ونقل معارف رياضية

بدأت ملامحه تتشكل كحقل للدراسة والتمثيل والعلاقة القائمة على القوة، قبل أن يتبلور بشكل منهجي ومؤسسي لاحقاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وهذا يتحدى الرواية التقليدية التي تؤرخ لبداية الاستشراق مع الحملات الاستعمارية في الشرق، مؤكداً على جذوره الأقدم والأكثر تعقيداً في قلب الحضارة الأوروبية نفسها، فيقول: «هناك أدلة قاطعة على ان الاستشراق بدأ في القرن الثامن الميلادي في الأندلس، فقد وجد نص مبكر من القرن التاسع للميلاد يتحدث فيه الفارو المسيحي القرطبي عما حدث مع اهله فيقول: «ان اخواني في الدين يجدون لذه كبرى في قراءة شعر العرب وحكايتهم ويقبلون على دراسة مذاهب اهل الدين والفلاسفة المسلمين»^(٧)، ولم تكن حصيلة هذا التفاعل الحضاري الممتد إلا تولد حالة من الإعجاب والتقدير بين المفكرين والمتقنين في الغرب نحو الحضارة الإسلامية وإنجازاتها العلمية والفلسفية. ويشهد على ذلك شهادة ذات دلالة عميقة صادرة عن خصومها، حيث دوّن كاتب مسيحي في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ملاحظة لافتة مفادها أن المسيحيين في زمانه كانوا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، بل إن الشبان المسيحيين - على حد تعبيره - «لا يعرفون علماً ولا أدباً إلا ذلك المُنْبُتُ من الثقافة العربية، ولا لغةً يُجيدونها سوى اللغة العربية»، مشيراً إلى إقبالهم الشديد والشغوف على دراسة الكتب العربية، وتكوين مكتبات ضخمة تحتوي على أمهات المصادر الإسلامية، في مؤثر

للاستشراق الكلاسيكي، الذي ارتبط لقرون بالحوار الصراعي والجلدي مع الإسلام، في النهاية التكامل بين الرؤيتين يمكن التوفيق بين الرأيين من خلال اعتبار أن التطور كان تدريجياً وتراكمياً. ف القرن العاشر مثل المرحلة الجينية أو "الاستشراق المعرفي"، حيث كانت البدايات بريئة ومركزة على العلوم الدنيوية. بينما مثل القرن الثاني عشر المرحلة المؤسسية أو "الاستشراق اللاهوتي-السياسي"، حيث تمت ترجمة المركز الثقافي والديني للعالم الإسلامي (القرآن) إلى اللغة العلمية لأوروبا (اللاتينية)، مما وضع الأسس لخطاب استشراقي أكثر نضجاً وتعقيداً، ظل سائداً لعدة قرون لاحقة. إذ تمت ترجمة معاني القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية عام ١١٤٣م^(٧). وقد تمت الترجمة برعاية الكنيسة وكان الراهب الفرنسي (بطرس الناسك)، رئيس دير كلوني في جنوب فرنسا، من رعى تلك الترجمة، وقد عهد بها للراهب الإنجليزي (روبرت كيتون)^(٨)، لذا أصبح تحديد تاريخ محدد لبداية الاستشراق مسألة خلافية بين المتخصصين في هذا المجال ويتصل ذلك باعتبارات عدة، فقد كان اختلاف الباحثون في النشأة وفي تحديد سنة معينة للاستشراق لان البعض منهم يرى الاستشراق ظهر كحركة فكرية مع ظهور الإسلام، ويتجلى ذلك في الجدل الذي وقع بين المسلمين واهل الكتاب، وفي المواجهة التي وقعت بين المسلمين والروم في غزوة مؤتة^(٩)، بينما يرجعه كثيرون إلى ايام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري، السابع الميلادي، متمثلاً في ما كتبه الراهب يوحنا

وفلكية عربية إلى أوروبا. وبالتالي، يرى أنصار هذا الرأي أن "الاستشراق" هنا تجلّى في الاهتمام المنهجي بالعلوم العربية والاعتراف بتفوقها، مما يشكل بداية حقيقية لظاهرة استشراقية قائمة على الانبهار المعرفي والاستفادة منه، حتى قبل أن تأخذ طابعها المؤسسي اللاحق^(١٠)، الرأي الثاني: رودى بارت والقرن الثاني عشر الميلادي كنقطة تحول مؤسسية في المقابل، يقدم المستشرق الألماني البارز رودى بارت (Rudi Paret) رؤية أكثر تحفظاً وتحديدًا. فهو يعتمد معيارًا مختلفًا يركز على الترجمة المؤسسية للنصوص الدينية الأساسية كفاصل تأريخي حاسم. وفقاً لبارت، لا يمكن الحديث عن استشراق بالمعنى الفعلي قبل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وتحديدًا عام ١١٤٣م، وهو التاريخ الذي تمت فيه أول ترجمة لاتينية لمعاني القرآن الكريم في دير كلوني (Abbey of Cluny) بفرنسا، بمبادرة من رئيس الدير البطريرك بطرس المحترم (Peter the Venerable)، والتي أنجزها فريق من المترجمين، أبرزهم روبرت أوف تشستر (Robert of Ketton). يرى بارت أن هذه الترجمة لم تكن عملاً فردياً أو بدافع الفضول العلمي المحض، بل كانت مشروعاً مؤسسياً مدفوعاً بأهداف لاهوتية وسياسية واضحة؛ وهي فهم عدو ديني جديد (الإسلام) والتمهيد لنقده ودحضه. هذا التحول من الاهتمام بالعلوم إلى الاهتمام بالعقيدة، ومن التلقائية الفردية إلى العمل المؤسسي المنظم، هو ما يجعل من القرن الثاني عشر، في نظر بارت وآخرين، البداية التأسيسية

الغربي بالتراث العربي الإسلامي ركيزة أساسية في الحفاظ عليه، حيث تنوعت جهود المُستشرقين بين الجمع، والحفظ، والتحقيق، والنشر، إلى جانب الترجمة والفهرسة والتكشيف. ولا يمكن إغفال الدور المحوري الذي لعبته المملكة المتحدة، كونها واحدة من أعرق الدول الغربية في حقل الدراسات الاستشراقية. وقد تميزت المدرسة الاستشراقية الإنجليزية بعمقها المنهجي ودقتها العلمية، كما اتسمت بصلات وثيقة وممتدة مع الشرق، ولاسيما الشرقيين الأوسط والأقصى، وذلك عبر قنوات ثقافية وسياسية وعسكرية واقتصادية متشعبة. وتركز اهتمام هذه المدرسة بشكل ملحوظ على مناطق الخليج العربي والعراق وفلسطين ومصر، إضافة إلى علاقتها المتجذرة مع شبه القارة الهندية، التي مثل تراثها الإسلامي الغني رافداً مهماً للفكر الإسلامي بشكل عام. ومن الطبيعي أن تنعكس هذه العلاقات الجغرافية الواسعة على توجهات المدرسة الإنجليزية، فوجهت دراساتها نحو فهم الإسلام في كل منطقة بتركيبه الفكري وتراثه وقضاياها المخصوصة. ويمكن إرجاع بدايات الاتصال البريطاني بالتراث العربي إلى مرحلة مبكرة، تمثلت بشكل خاص في مدرسة المترجمين في طليطلة، التي أصبحت بعد سقوط المدينة بيد الإسبان مركز إشعاع فكري وحضاري. وبغض النظر عن الدوافع والأهداف الكامنة وراء هذه الدراسات، فإن أثرها الواضح في حفظ التراث العربي الإسلامي يظل حقيقة لا تنكر^(١٤)، وكان من أهم إنجازات تلك المرحلة ظهور أول ترجمة

الدمشقي من رسائل وكتب لمجادلة المسلمين^(١٥). وكان يوحنا الدمشقي قد خلف أباه على بيت المال في خلافة هشام بن عبد الملك وهو أول راهب يصنف كتباً في الدفاع عن عقيدته وفي مواجهة الإسلام، بينما رسالة: محاوره مسلم، وارشادات النصراري في جدال المسلمين، وكتاب منبع العلم، وكتاب حياة مُحَمَّد، ضمنها دفاعاً عن ديانته، مع انتقاد للإسلام^(١٦)، وهذا تظهر البدايات المبكرة لظهور المصنفات الفكرية في الطعن في الإسلام من رهبان الكنيسة، وهذا ما يمكن وصفه بالكتابات الاستشراقية الأولى، وبالبدايات الأولى للاستشراق. ثم أسست المعاهد، للدراسات العربية أمثال مدرسة «باودي العربية»، وأخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس المؤلفات العربية المترجمة إلى اللاتينية، واستمرت الجامعات الأجنبية تعتمد على كتب العرب وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون^(١٧)، ففي كتاب المبشرون والمُستشرقون يرى الكاتب ان الاستشراق انتشر في أوروبا بصفة جدية بعد فترة الإصلاح الديني، ومنهم من يرى ان نشأة الاستشراق بدأت منذ بعثة الرسول مُحَمَّد (ﷺ)، او ما يعيد نشأته إلى أكثر من ألف عام^(١٨). إذا يُعدُّ الاستشراق تياراً فكرياً متشعب الجذور، له سماته وأسبابه وأهدافه الخاصة. ولا يتصور أن يلمَّ باحث واحد بكل خباياه أو يفكَّ جميع شفراته، فهو في جوهره ثمرة صراع تاريخي طويل بين العالمين الإسلامي والمسيحي، ونتاج طبيعي لتفاعل معقد بين عقيدتين وثقافتين وحضارتين مختلفتين، لطالما مثل الاهتمام

المركزية في الفجوة المعرفية حول الدور الحقيقي الذي لعبه المحاضرون والعلماء العرب في تأسيس وتطوير مناهج دراسة اللغة العربية في المؤسسات الأكاديمية البريطانية المرموقة، لطالما حظي المستشرقون الغربيون باهتمام الباحثين، بينما ظل شركاؤهم العرب في الظل، مما يشوه الفهم الكامل لتشكيل هذه التخصصات المعرفية، ومن أول تلك الخبرات العربية المستشرق المصري يوسف أبو دقن المنوفي صاحب كتاب «التاريخ الحقيقي للقطب في ليبيا والنوبة والحيشة» والذي شغل منصب محاضر لمدة ثلاث سنوات في جامعة أكسفورد^(٢٠)، ليكون بجانب استاذ العربية فيها وليم بدويل^(٢١).

المبحث الثاني

أولاً: بين النقد والحفظ: الوجه الآخر للاستشراق البريطاني في التعامل مع التراث الإسلامي

إذا نظرنا إلى عمق التأثير في الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية، نجد أن الإرث النظري للاستشراق البريطاني يبدو أقل حدة من نظيره الفرنسي والإسباني، اللذين ارتبطا بصراع ديني مباشر ومشروع استعماري طموح على الأرض العربية^(٢٢)، لم يقتصر اهتمام البريطانيين بحماية «التراث الإسلامي» على الجانب النظري فقط، بل تجلّى ذلك عملياً من خلال سعيهم الحثيث لجمع المخطوطات. فقد أدرك المستشرقون البريطانيون الأهمية المحورية لهذه المخطوطات، باعتبارها

للقرآن الكريم باللاتينية عام ١١٤٣ م، والتي انجزها الراهب والمستشرق البريطاني روبرت أوف كيتون بالتعاون مع الألماني هرمان اليمانوس^(١٥)، تحت إشراف بطرس المكرم، رئيس دير كلوني^(١٦)، ورغم أن المستشرقين البريطانيين كانوا على اطلاع على الثقافة العربية والإسلامية عن طريق العلماء الذين قصدوا صقلية والأندلس واخذوا الثقافة العربية الإسلامية على أعلامها في مدارسها ومنهم «أدلر أوفبات، وروبرت أوف تشتر، ودانييل أوف مورلي وآخرين كثير»^(١٧)، فإن الدراسات العلمية الأكاديمية للتراث العربي الإسلامي قد بدأت عندما أسس السير توماس آدمز كرسي الدراسات العربية في جامعة كامبردج عام ١٦٣٢^(١٨)، وتلا ذلك تأسيس كرسي للدراسات العربية بجامعة أكسفورد عام ١٦٣٦، على يد الأسقف ويليام لود، كبير أساقفة كانتبري ورئيس الجامعة^(١٩). يشهد حقل الاستشراق وتحليل الخطاب ما بعد الكولونيالي تحولاً جوهرياً في تقييم تاريخ تدريس اللغات الشرقية في الجامعات الغربية. لم يعد هذا التاريخ يرى كمسيرة تقدمية بحتة قادها المستشرقون الغربيون فحسب، بل كشبكة معقدة من التبادلات والتأثيرات المتبادلة، حيث لعبت الخبرات العربية والشرقية الأدوار المحورية، وإن كانت غالباً ما تُهمش في السرديات التقليدية. يهدف هذا البحث إلى إعادة فحص التطور التاريخي لتدريس العربية في بريطانيا، مع تسليط الضوء على مساهمات المحاضرين العرب الذين عملوا جنباً إلى جنب مع زملائهم الغربيين. إذا تمثلت الإشكالية

برز دورٌ بريطانيٌّ موازٍ ومتكامل. فقد عملت المكتبات والمعاهد البريطانية بجهد حثيث على تشييد مجموعات ضخمة ونادرة من المخطوطات العربية والإسلامية، حافظت بها على هذا التراث من الاندثار ووضعت بين أيدي الباحثين والدارسين^(٢٦). وتحتوي هذه المكتبة على مجموعة هائلة تزيد عن ستة ملايين كتاب ومخطوطة، بما فيها أكثر من سبعة آلاف مخطوطة عربية نادرة. ويقارب هذا العدد من المخطوطات العربية والإسلامية الثمينة ما تحويه المكتبة البريطانية (The British Library). كما تضم المكتبة مجموعة كبيرة من الكتب العربية المطبوعة يقدر عددها بنحو أربعين ألف كتاب^(٢٧)، أما بالنسبة لفهرسة المخطوطات، كان المُستشرقين بعد عودتهم من رحلاتهم لجمع المخطوطات الشرقية يعكفون على العمل على فهرستها وتصنيفها لتسهيل الإفادة الاستشرافية منها ولتكون في خدمة الباحثين في الدراسات، وترمي الفهرسة إلى تقديم صورة دقيقة عن المخطوط بوصفه المادي من حيث عدد الأوراق، وسلامتها أو تلفها وجودة الخط ووضوحه، واوهام النسخ، وفتح المخطوطة وخاتمتها، وتحقيق عنوانه واسم مؤلفه وموضوعه مما يفيد المهتم^(٢٨)، أما بالنسبة لجهود المُستشرقين الإنجليز في تحقيق كتب التراث الإسلامي والعربي، لم يقف جهد المُستشرقين على جمع المخطوطات ولاقتناء فقط بل عملوا كذلك على فهرسة ما جمعوا فهرسة علمية دقيقة، تصف معالم المخطوط وتبين حظه في الأصالة وتحقيق نسبة المخطوط وتعرف بمؤلفة وتتبع تنقله بين أيدي المالكين جيلا بعد

المادة الأولية التي لا غنى عنها لأي بحث جاد في هذا الميدان، ولم يكن جمع هذه الكنوز المعرفية مقصوراً على فئة واحدة، بل شارك فيه بشكل مباشر المُستشرقون أنفسهم الذين رحلوا إلى المشرق، سواء كان ذلك بمبادرات شخصية أو بتكليف من زملائهم العلماء. كما أسهم في هذه الجهود فئات أخرى مثل السفراء والتجار ورجال الدين، بالإضافة إلى المستعربين المهواة، الذين كثيراً ما اعتمدوا في جمعهم على مساعدة السكان المحليين في البلدان الشرقية التي زاروها^(٢٩)، واكبر مثال على هؤلاء المُستشرقين البريطانيين المُستشرق البريطاني «ادوارد بوكوك» الذي قضى في مدينة حلب خمس سنوات درس فيها اللغة العربية كتابة وخطابة على يد الشيخ فتح الله^(٣٠)، ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد رافقت تلك المرحلة عملية جمع لمخطوطات نادرة وقيمة، كان مصيرها أن تشكل إثراءً *qualitatif* لمكتبة جامعة أكسفورد. فمع وفاة بوكوك، انضوت مجموعته الكبرى من المخطوطات الشرقية، والمقدرة بأربعمائة مجلد (بما فيها مئتان وسبعون مجلداً عربياً)، *into the holdings of* مكتبة بودلي *an* عام ١٦٩١. وقد حوت هذه المجموعة، التي جمعها صاحبها من ربوع المشرق، عيون المؤلفات في التاريخ والتراجم واللغة والشعر والحكمة، إلى جانب بضع نوادر في الطب والرياضيات والفلك^(٣١)، لم ينفرد الفرنسيون بهذا المجهود، فإلى جانب مكباتهم البارزة في ستراسبورغ وأفينيون والمدرسة الوطنية للغات الشرقية ومكتبة باريس الوطنية،

ثانياً: الرحلات الأوروبية والوساطة الاستشرافية

يمثل أدب الرحلات، بوصفه أحد الأجناس الأدبية القديمة، مصدرًا غنيًا للدراسات التاريخية والأثروبولوجية والاستشرافية، وعلى الرغم من جذوره الضاربة في تاريخ الحضارات المبكرة، كما يتجلى في سجلات رحلات رحالة بلاد الرافدين ومصر القديمة، فإنه شهد تحولاً جوهرياً مع ظهور الظاهرة الاستعمارية الأوروبية. فقد أصبحت رحلات المستشرقين والغربيين إلى المشرق العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، على وجه الخصوص، أداة فاعلة في تشكيل التمثيلات الغربية للمشرق وخدمة المشاريع الجيوسياسية للإمبراطوريات الأوروبية.. فشملت كتابات الرحالة الدوافع والصعوبات المصاحبة، أما الجانب الأهم فهو وصف المناطق والشعوب التي قابلوها، واستمر الاهتمام بأدب الرحلات عبر مختلف العصور والحقب التاريخية القديمة والإسلامية والحديثة بسبب طابعها الأدبي الشائق، فبرز عدد من الكتاب من أمثال هيرودوت في الأدب الإغريقي، وابن بطوطة في الأدب الإسلامي، واخيراً برزت أهميتها العلمية، نظراً لما تحويه من معلومات قيمة تعد مصدرًا غنيًا لدراسة تاريخ المنطقة، وهذا الأمر شجع على عقد عدد من المؤتمرات الخاصة بهذا المصدر الغني بالمعلومات. ولا تقتصر الأهمية العلمية على المدة الزمنية المعاصرة لكتابات الرحالة بل تشمل حقبةً وعصوراً تاريخية تعود إلى ما قبل الإسلام والعصور الحجرية، لذا

الدور الجيو-سياسي للمستشرقين والرحالة

جيل^(٢٩)، ويعد أول من طبق منهج تحقيق كتب التراث الإسلامي والعربي من الغربيين في العصر الحديث المستشرق الألماني «برجستراسر» في محاضرات ألقاها على طلبة الماجستير بقسم اللغة العربية في كلية أداب القاهرة ١٩٣١م^(٣٠)، إما أول وأهم كتاب علمي غربي عن تحقيق كتب التراث الإسلامي والعربي فهو كتاب «قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها» لمؤلفيه بلاشير وجان سوفاجيه^(٣١). وبدأ المستشرقين البريطانيين تحقيق كتب التراث الإسلامي منذ اقتناء المخطوطه الأندلسية الأولى «حي بن يقظان»^(٣٢)، وأن لم يكن الاهتمام مبكراً بالتحقيق في بريطانيا ينصرف إلى مقابلة النسخ المتوافرة للنص المراد تحقيقه للوصول إلى قراءة صحيحة له^(٣٣)، وقد تنوعت الجهود البريطانية في نشر التراث الإسلامي والعربي الثقافي فحقق ونشر المستشرق البريطاني وليام رايت «رحلة ابن جبير باللغة العربية لأول مرة»^(٣٤)، والكامل في اللغة والأدب للعباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الملقب بالمرصد والذي طبع لأول مره في ليزبج في عشرة اجزاء^(٣٥)، لم يتوقف الإسهام البريطاني في الاستشراق عند حد النظرية، بل امتد إلى أعمال تطبيقية ملموسة. فها هو المستشرق آرثر جون أربري يخرج لنا كتاب «الرياضة» للحكيم الترمذي من ركाम الإهمال، محققاً إياه وضامناً بقاءه عبر طباعته في القاهرة عام ١٩٤٧. ولم يكن هذا الإنجاز سوى حلقة واحدة في سلسلة حافلة بالإنتاجات العلمية التي سُجّلت بروعة في سجل الاستشراق البريطاني^(٣٦).

المفاهيم الإسلامية^(٣٩)، فالطرق التي سلكوها الرحالة والمُستشرقين متعددة، الهدف السامي هو الوصول لمبتغاهم وتحقيق اهدافهم.

ثالثاً رحلات ذات طابع استخباراتي تجسسي تخدم المصالح السياسية

شكل التوسع في الدراسات الاستشرافية والرحلات الاستكشافية إلى المنطقة العربية، مع تركيزها الملموس على الإسلام والمجتمعات العربية، إطاراً بحثياً ارتبط عضوياً بالأجهزة الاستخباراتية الغربية. وقد تحولت هذه الدراسات، في إطار هذا السياق، إلى أداة منهجية لرصد الواقع وتحليله وجمع المعلومات، ساعيةً إلى تكوين تصورات دقيقة عن كل منطقة بطأها قداما الرحالة أو المُستشرق. وقد اتسم هذا الجهد بطابع معرفي واستطلاعي واستعماري، حيث كان يهدف إلى خدمة مشاريع الهيمنة والسيطرة. وقد تصاعد الاهتمام بهذا الدور الوظيفي للاستشراق بشكل ملحوظ وكثيف في أعقاب الحرب العالمية الثانية، تماشياً مع التغيرات الجيو سياسية الدولية وصراعات النفوذ خلال حقبة الحرب الباردة، خاصتها في كل من أمريكا وكندا وازداد عدد المتفرغين لهذه الدراسات من ٣٦٣ إلى ٦٧٠ بين عامي (١٩٦٩-١٩٨٦)^(٤٠)، اتسم التعاون بين أولئك الرحالة والمُستشرقين من جهة، والجهات السياسية والاستخباراتية الغربية من جهة أخرى، بطابع وثيق وممنهج، سعيًا للحصول على الوثائق والمخطوطات الرسمية النادرة المتعلقة بالبلاد

فان الازدياد المطرد في ترجمة ادب الرحلات يساعد الدارسين لتاريخ أي بلد في الحصول على مصادر جديدة للمعلومات وإمكان توظيفها والإفادة منها في دراسة تاريخ منطقة تعاني من ندرة في مصادرها الأولية^(٣٧)، إذا تحققت قُدوم كثير من الرحالة في فترات تاريخية مختلفة مُقترناً بِجُملة من الأهداف السياسية والاقتصادية والدينية، وقد تباينت آراؤهم ومواقفهم بين مُعارضٍ ومُؤيدٍ لطبيعة كتاباتهم عن الإسلام والمسلمين، فإن هذه الأهداف الذاتية لا تُنقُص - بحالٍ - من الأهمية العلمية والتاريخية الفائقة لأدب الرحلات. وتُعزِّزُ هذه الأهمية بحقيقة أن أولئك الرحالة كانوا في الأغلب الأعم منهم مُغامرين مُتمرسين من الدرّجة الأولى، وعلى دراية واسعة بتاريخ المنطقة، قديمه وحديثه، مما يمنح رواياتهم ميزة المشاهدة العيانية المُقترنة بخلفية معرفية^(٣٨). هنا يمكن استنتاج قضية مهمة متصلة ما بين ادب الرحلات والاستشراق واستعمار البلاد العربية كما ذكرها المُستشرق الهولندي سنوك هرجرونيه عن هذه العلاقة القوية ما بين كل ذلك فيذكر: «إن الشريعة الإسلامية موضوع مهم للدراسات الاستشرافية، ليس فقط لأسباب تجريدية نظرية متعلقة بتاريخ القانون والحضارة والدين، ولكن كذلك لأهداف عملية، وذلك كلما توثقت العلاقات بين أوروبا والشرق الإسلامي، زاد عدد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوروبية، وزادت الأهمية بالنسبة لنا نحن الأوروبيين لتتعرف على الحياة الفكرية، وعلى الشريعة، وعلى خلفية

الكامنة وراء بعثات بعض هؤلاء المستشرقين، فإن القيمة العلمية للمادة الموثقة في أدب رحلاتهم تبقى لا تُنكر. فقد قدموا وصفاً دقيقاً للمعالم الجغرافية والاجتماعية، بالإضافة إلى رسومات توثيقية واضحة للنقوش والآثار، مما جعل هذه الكتابات مصدرًا لا غنى عنه للباحثين في حقل الدراسات التاريخية والآثار الخاصة بالمنطقة. ، وما تزال هذه الأعمال تثبت دقة كاتبها يوماً بعد يوم، وستظل عنصرًا مهمًا لكل باحث يتعرض لتاريخ المنطقة، وتعد أعمال جوسين (١٨٧١-١٩٦٠)، وسافيناك (١٨٧٤-١٩٥١) عن مدائن صالح والعمالاً متميزاً لأدب الرحلات، التي تفرض على الباحثين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم الاعتماد عليه^(٤٢)، فقد طاف هذان الراهبان الفرنسيان بمناطق فلسطين والأردن وسيناء ومصر واليمن وشمال شبه الجزيرة العربية خلال اواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وقاما بنشر مجموعته قيمة من الكتب والدراسات، من أهمها «بعثة أثرية إلى شبه الجزيرة العربية» فالكتاب عمل موسوعي ضخم يتناول جوانب عديدة من تاريخ شمال غرب شبه الجزيرة العربية، وهو مزود بالصور والخرائط والمخططات التفصيلية لعدد كبير من معالم المناطق الأثرية^(٤٣). اتسمت العديد من الرحلات الغربية إلى المشرق الإسلامي، وخاصة تلك المتجهة نحو الأراضي المقدسة، بطابع ازدواجي في الأهداف والدوافع. فعلاً ما اتخذت هذه المهمات غطاءً دينياً ظاهرياً، يُستخدم كستار لتخفي الأغراض الجيوسياسية والاستخباراتية الكامنة وراءها.

العربية. وقد أسهم في نجاح هذه المهمة ما تمتع به هؤلاء الأفراد من كفاءات استثنائية؛ حيث كانوا مغامرين متمرسين من الطراز الأول، مدعومين بمعرفة عميقة بتاريخ المنطقة تراكتت عبر دراسة متأنية لكل من حقبها القديمة والحديثة. وهذا ما منحهم القدرة على التنقل بفعالية وفهم السياقات الثقافية والاجتماعية المعقدة، مما جعلهم أداةً بالغة الأهمية في خدمة المشاريع الجيوسياسية لتلك الجهات^(٤٤)، أسهم إمام الرحالة الغربيين (المُستشرقين) بالأعمال الكلاسيكية والعربية في تعميق معرفتهم بجغرافية بلاد العرب وأحداثها التاريخية. وقد اكتسبت كتابات العديد منهم طابعاً علمياً يعتد به، ويعود ذلك إلى اتباع منهجيات دقيقة في توثيق النقوش الصخرية والرسوم والكتابات الأثرية، مما أسفر عن تسجيلات موثوقة شكلت ركيزة أساسية في (إعادة بناء) التاريخ القديم للمنطقة. تجدر الإشارة إلى أن الدراسات (النظامية) المعنية ببلاد العرب، ولا سيما شبه الجزيرة العربية، قد تأسست على أيدي هؤلاء الرحالة المُستشرقين. فقد اعتمدوا في كتاباتهم التاريخية على مصدرين رئيسيين: الأول يتمثل في المعرفة المشتقة من المصادر الكلاسيكية والتراث المكتوب، والثاني قائم على المشاهدات الميدانية المباشرة التي جمعوها خلال زيارتهم المتكررة. وقد اعتمدت منهجية جمع هذه المعطيات الميدانية على المشاركة المجتمعية والاختلاط بالسكان المحليين وتسجيل المشاهدات بدقة وبالرغم من الانتقادات الموجهة إلى الأهداف السياسية أو الاستعمارية

المبحث الثالث

الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية دوافع علمية واسهامات في المعرفة الاستشراقية

شكّلت الجزيرة العربية، بموقعها الجيوسياسي ومكانتها الدينية، محط جذبٍ مستمرٍ للرحالة والمستشرقين الأوروبيين على مدى قرون. لم تكن رحلات هؤلاء مجرد استكشافات جغرافية، بل كانت مشاريع فكرية معقدة حفّزتها دوافع متشابكة تتراوح بين العلمية والدينية والسياسية. وقد خلفوا وراءهم إرثاً توثيقياً غنياً، تمثل في مدوّناتهم ومشاهداتهم التي أصبحت بمثابة مصادر أولى لا غنى عنها لفهم تاريخ وجغرافيا واجتماعيات المنطقة في فترات زمنية حرجة. ومن بين الرحالة الذين خلفوا وراءهم نتاجاً ثرياً حول الجزيرة العربية، الرحالة الإنجليزي (تشارلز دوتي)، فقد قام برحلة طويلة إلى الجزيرة العربية في عام ١٨٧٦، واستمرت سنتين من الزمان، وبعد عودته إلى موطنه ألف كتاباً دون فيه تلك الرحلة، وسماه (ترحال في صحراء الجزيرة العربية). فهناك العديد من المستشرقين والرحالة الذين اثنا على كتاب دوتي فذكر لورانس العرب وقال: «أن كتابه أوفى كتاب مرجعي عن حياة العرب في الصحراء، وأنه ذو قيمة عسكرية»، ومن ثم صار يدرس في العديد من الكليات والمعاهد العسكرية في بريطانيا، خاصة وانه ساعد في نجاح الثورة العربية التي قادها لورنس مع الأمير فيصل بن حسين^(٤٦)،

وقد أسهم التواتر المستمر لهذه الرحلات، سواء تلك التي قام بها مستشرقون أو رحالة يعملون بشكل مباشر أو غير مباشر لصالح أجهزة استخبارية، في تشكيل تراكم معرفي غربي حول المنطقة. وقد تمخضت هذه الرحلات عن إنتاج تقارير ودراسات أنثروبولوجية وسوسولوجية وصفية بالغة الدقة، سجلت بدقة متناهية أوضاع المجتمعات المحلية من حيث البنى الدينية، والتركيبات السياسية، والأنشطة الاقتصادية، والنسيج الاجتماعي. وتعد دراسة المستشرق أوغست رالي والمعنونة: «المسيحيون في مكة» (Christians in Mecca) نموذجاً بارزاً لهذا الأدب الاستشراقي. حيث يقدم الكتاب، الذي يستند إلى شهادات ورحلات أوروبيين تمكنوا من دخول المدينة المقدسة، عرضاً شاملاً لانطباعاتهم وملاحظاتهم، مما يجعله وثيقة تاريخية تسلط الضوء ليس فقط على المشهد الحضاري لمكة في تلك الحقبة، ولكن أيضاً على المنظور الغربي والآليات التي استخدمها لدراسة وتمثيل "الأخر" الشرقي. بدءاً من سنة (١٥٠٣-١٨٩٤)^(٤٤)، في النهاية اغلب الباحثين يؤكدون بأن المعرفة تؤثر على السلطة، وبالتالي فإن السلطة توظف المعرفة^(٤٥)، لأجل تحقيق السيطرة وضمان السلطة، والأيمان بأن المعرفة قوة، كل ذلك جعلهم يهتمون بإقامة مراكز للأبحاث، القادرة على إنتاج المعرفة، فمهمة هذه المراكز هي لغرض الكسب والحصول على القوة، وبالتالي فإن هذه القوة تشارك في صنع السياسة.

معاً مدینتا مكة المكرمة والمدینة المنورة، علی الرغم من صعوبة الكتابة أنداك لارتباطها بأسباب كثيرة مثل وجود غیر المؤمنین بالإسلام بديار المسلمین المعروفة بالظروف الجوية القاسية، قياساً بأجواء أوروبا وما ترتب علی ذلك من تفشي الأوبئة والأمراض^(٤٨)، وسوی ذلك من أمور أخرى تعقد من مهمة الرحالة وتحبط من عزائمهم.

أولاً: الخلفية الأسرية والتكوين العلمي لتشارلز دوتي (١٨٤٣ - ١٩٢٦)

وُلد تشارلز مونتاغو دوتي (Charles Montagu Doughty) في التاسع عشر من أغسطس عام ١٨٤٣. ينحدر دوتي من أسرة ميسورة الحال تنتمي إلى النخبة الريفية الإنجليزية؛ إذ كان والده، تشارلز مونتاغو دوتي الأب، مالكاً للأراضي وعضواً في طبقة (Gentry) في بلدة ذيرتون (Debenham) بمقاطعة سفولك (Suffolk)^(٤٩)، أما التحالفات الأسرية والراس المال الاجتماعي والثقافي، إذا تميزت الشبكة الاجتماعية لعائلة دوتي بتحالفاتها مع الأسر ذات المكانة الدينية والأرستقراطية. فمن خلال زواج والده من فريديكا بومونت (Frederica Beaumont)، تم ربط نسبه بعائلة هوثام (Hotham) المرموقة. وكانت فريديكا حفيدة للبارون الثاني هوثام، وابنة القس فريديك هوثام، الذي شغل مناصب دينية رفيعة، منها كونه قسيساً في كاتدرائية روشيستر (Rochester) وراعياً لأبرشية ديننجتون (Dennington).

فكتاب تشارلز دوتي يعتبر بوابة الرحلات الغربية وكشافها إلى جزيرة العرب اكثر من أي كتاب اخر^(٤٧)، وهو من الكتب التي لقيت رواجاً في العالم الغربي والعربي، بالرغم من انه كتب بأسلوب يشد القارئ وقد وجد فيه بعض المآخذ التي تتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي، إلى جانب الإساءة إلى الوحي وإلى نبوة النبي مُحَمَّد (ﷺ). اذن يمكننا القول ان كتابات الرحالة الأوربيين في العصور الوسطى، وفي العصور الحديثة المعنية بالتواصل الثقافي بين أوروبا والشرق، كان لها دور في زيادة معرفة الغرب بجغرافية الشرق، وهي كتابات تدخل ضمن أدب الرحلة الذي تطور في الأزمنة الحديثة ليكون توظيفاً للمعرفة لصالح الاستعمار الأوربي في بدايات دخوله العسكري إلى الأوطان الإسلامية، فكتب الرحلات ليست كتب تاريخ، ولكنها مصادر مهمة للمؤرخ، لأن الرحلة في العادة تستهويهم جوانب دون أخرى من المجتمعات والناس والأشياء دقيقة وعميقة، وهذا دليل على أن نصوص الرحلة وثيقة تاريخية مهمة يستفيد منها المؤرخ، ودارس التاريخ على حد سواء، ولذا توافد عدد كبير من الرحالة والمستشرقين من مختلف الاتجاهات، ولأهداف مختلفة صوب البلدان العربية، وكان لمكة حصة الأسد من هذه الرحلات، التي مازالت تشد إليها الرحال حتى يومنا هذا، إلى درجة لا يمكن معها إحصاء بيبلوغرافيا الكتب والمدونات والمصنفات والخرائط الغربية حول مكة المكرمة، إذ لم يشهد التأريخ اهتماماً بفضاء مكاني معين كالذي شهدته

معقدة لعبور الحدود الدينية والاجتماعية في الجزيرة العربية. ولما كان القرن السادس عشر قد شهد من هذه المرحلة تضاعف عدد الرحالة الأوربيين، الذين قصدوا المشرق إما للتجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرد الخروج بمؤلفات إبداعية فريدة، فقد كانت جزيرة العرب معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي، وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنها نالت من اهتمام رحالي الغرب وجهودهم المضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين)، فجابوا بواديا ومجاهلها ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها^(٥١)، أن الرحلة التي يصف أبعادها هذا الكتاب لها قيمة كبيرة، من حيث المغامرة والمتعة في الرحلة والترحال، ولأن الفترة التي كتبت فيها كانت مفصلية بين الغرب والمشرق الإسلامي، إذ كانت هناك أحداث دراماتيكية وسيناريوهات حربية وسياسية وإعادة صياغة لجغرافيا المنطقة الحجاز، وقد كانت هناك أحداث جسيمة ذكرت وقائعها في الكتاب، وقد افسحت المجال لظهور شخصيات مهمة من الرحالة الإنكليز الذين لعبوا أدوارًا محورية في سياسة المنطقة^(٥٢)، وكانت هذه الطبقة من الرحالة العسكريين والجيولوجيين والسياسيين والجواسيس هم الذين ازدحم بهم المشرق العربي في أعقاب الحرب الأولى بعشرينات القرن العشرين، فقد كانت هذه الفترة قطف ثمار نصر بريطانيا، ولتحكم سيطرة بلادها الثقافية والسياسية والاقتصادية على المشرق العربي^(٥٣)،

فيشير هذا الارتباط العائلي إلى توفر رأس مال ثقافي واجتماعي كبير لدوتي منذ نشأته^(٥٤). مما وفر له إمكانية الوصول إلى شبكات النخبة والفرص التعليمية المتميزة، وهي عوامل كان لها أثر بالغ في تشكيل مساره المستقبلي، وميوله، ولكن هذه الحرية لم تكن تعني أن دوتي من حقبة التركيز على دراسة شيء بعينه وإهمال بقية الأشياء، ونظرًا لأن حبه الأول كان هو الجولوجيا، فقد كانت تراوده رغبة قوية في مواصلة دراسته لها ولكن بطريقته الخاصة وفي الوقت الذي يحدده هو، فواجه صعوبة كبيرة بسبب سلطات الكلية في كايوس تصر على مواظبة الطالب الدوام ما بين المحاضرات والتردد على كنيسة الكلية، فكان دوتي يتحسس من هذه الأجواء، فعزم هو وثلاثة اخرون السير على نفس خطى براديري، فحصل دوتي على منحة دراسية عام ١٨٦٣، التي حتمت عليه النزوح إلى كلية لا تفرض عليه الحضور إلى الكنيسة التابعة إلى الكلية، فعزمه وجدته في البحث والتقصي وايضا حصوله على العديد من المنح الدراسية التي اضافت اليه الكثير.

اتخذ دوتي صاحب كتاب (ترحال في صحراء الجزيرة العربية)، الاسم المستعار خليل خلال رحلته (١٨٧٦-١٨٧٨)، وهو اسم يحمل دلالات دينية توحيدية، مشترك بين الإسلام والمسيحية واليهودية، مما سهل عليه الاندماج النسبي في المجتمعات المحلية، لم يكن هذا التمويه مجرد تكتيك أممي، بل كان استراتيجية ثقافية

يُعرّف توماس إدوارد لورانس (المشهور بلورانس العرب) كتاب دوتي بأنه عملٌ موسوعي فريد، ويرى أنه المصدر الأكثر شمولاً الذي كُتب عن بدو الصحراء. كما يوضح لورانس أن نطاق الكتاب يتجاوز وصف الحياة البدوية ليشمل مجالاتٍ عدة استغرقت من دوتي أكثر من عشرة أعوام لجمعها وتحليلها، شملت جيولوجيا وتضاريس وآثار الجزيرة العربية، بالإضافة إلى أحوال سكانها المعيشية^(٥٦)، كما ان كتاب دوتي يحمل الكثير من المتعة انطلاقاً من منظر خاص يقدمه الرحالة البريطاني، الذي خاض مغامرة مخوفه بالمخاطر، كما يقدم الكتاب صورة مسلية لواقع تلك المنطقة (الجزيرة العربية)، في مرحلة تاريخية معينة (بدايات القرن العشرين)، التي لم تتمكن بعض كتب الرحلة العربية المختصة من تقديم مشهد يماثل كتاب (تشارلز دوتي)، دقة ووصفاً علمياً، كونه جيولوجي وصف تضاريس الصحراء بدقة مذهلة، وكونه دارس للثقافات، غاص في عمق حياة البدو وعاداتهم، النتيجة لوحة فنية أدبية رائعة تقدم لك المنطقة بمنظور نادر جداً، قد لا تجده حتى في بعض كتب الرحالة العرب أنفسهم^(٥٧)، اما بالنسبة للطبعة الأولى من الكتاب فقد ظهرت عام ١٨٨٨، تلتها طبعات أخرى نشرتها جامعة كامبريدج بين عامي (١٩٢٠-١٩٢١)، إضافة إلى طبعة مختصرة من الكتاب وضعها إدوارد جامنت ونشرتها دار مسيرز، وإن كانت لا تغني بطبيعة الحال عن تلك التفاصيل الممتعة والدقيقة التي سجلها «دوتي»،

الدور الجيو-سياسي للمستشرقين والرحالة

وقد نقل إلينا المؤلف وصفاً لتجربته في شبه الجزيرة العربية خلال سنوات اقامته هناك عندما كان متنكراً بلقب (خليل)، وذاع صيت دوتي تحت هذا الاسم، الذي طلب إلى بائع الأختام أن يحفر له ذلك الاسم على ختم حتى يتسنى له استعماله في الجزيرة العربية، وقد اختار دوتي ذلك الاسم لأنه معروف في الأديان كلها التي يعد سيدنا إبراهيم أباً لها، إضافة إلى ان ذلك الاسم لا يشيع إطلاقه على اطفال المسلمين، وعندما سئل لماذا لم يختار اسماً مثل حسن، أو أي اسم اخر من الأسماء الإسلامية المميزة الأخرى، «أجاب أنه لم يكن يود التظاهر أو الكذب بأنه من المؤمنين»^(٥٨)، فكان الكتاب يركز على جوانب مختلفة من الحياة البدوية، بما في ذلك العادات والتقاليد، وكرم الضيافة، واللقاءات مع مشايخ البادية، كما تناول الكتاب انطباعات دوتي عن طبيعة الجزيرة العربية ومناطقها المختلفة^(٥٩).

ثانياً: التكوين المعرفي لكتاب تشارلز دوتي

نظراً لندرة المصادر التي تتناول سيرة حياة تشارلز دوتي، باستثناء مؤلفه الرئيسي «ترحال في صحراء الجزيرة العربية» وما ورد من إشارات عنه في كتابات الرحالة الغربيين المعاصرين له، فإن هذه الدراسة ستركز على تحليل هذا الكتاب بوصفه النص الأساسي الذي يمكن من خلاله استنباط ملامح ثقافة دوتي واستكشاف مستوى وعيه الفكري الذي نحاول ان نلقي الضوء عليه من خلال الآتي:

الحرّة، وينزلون إلى محطة الصيف في وادي تربة، مخيم المواء أهيب الصيفي في وادي تربة، زيارة العلا، الفُكارة يمضون الصيف في الحجر، تيماء، حصاد التمر، الجبل، حائل. ويشتمل الكتاب في جزئه الثاني على ثمانية عشر فصلاً وثلاثة ملاحق منها ملحق للفصل الحادي عشر وملحق للفصل الرابع عشر ثم ملحق للجزء الثاني ككل عن جيولوجيا الجزيرة العربية، ففصول الجزء الثاني من الكتاب تقع تحت العناوين التالية: مدينة ابن الرشيد، الحياة في حائل، الرحيل عن حائل، الرحلة إلى خيبر، بلاد الرسول، الخيابه، حياة المدينة في خيبر، ارض الجالا، تراث المدينة الخاص، الخلاص من خيبر، الرحلة الصحراوية إلى حائل، نقل النصراني منها، صحاري كل من الشمر وحرب في نجد، الرحلة إلى القصيم، بريدة، عنيزة، الحياة في عنيزة، طرد المسيحي الغريب من عنيزة، وإعادته إليها، حروب عنيزة، طرد القحطان من القصيم، البدء من القصيم، بصحبة قافلة الزبد المتجهة إلى مكة، الطائف، الشريف، امير مكة، وادي فاطمة، ويختتم دوتي الجزء الثاني بقائمة لمصطلحات الكتاب والكلمات العربية التي وردت فيه. استطاع دوتي من خلال هذين الجزئين نقل الصحراء بكاملها إلى قارئ هذا الكتاب: الصحراء بتلاها، وسهولها، بحقولها البركانية التربة، وقرائها، وخيامها ورجالها وحيواناتها، فنقل عن الجزيرة العربية الحقيقية. بعد ان بينا اهمية رحلة دوتي وكذلك الكتاب وماهيته يجب ان نبين موقفه بالنسبة لنبي الرسالة الخالدة^(٥٨).

ولا عن الأحداث المثيرة والمواقف الدراماتيكية التي تعرض لها خلال وجوده بين ظهرا في البدو، كما ان قارئ الكتاب يشعر وكأنها كان يعيش مع «دوتي» أو مرافقاً له فيها كان يتعرض له من مواقف وأحداث، فالكتاب تضمن مواقع اثارية ونقوش كتابية فكان تكوينه العلمي كعالم في الجيولوجيا، وسهولة معرفته بالمظاهر الطبيعية والطبوغرافية والجيولوجية، وكان يحمل معه الأجهزة الخاصة بقياس الارتفاعات والأعاق، فكان التنوع والثراء يعترى رحلة «دوتي» العلمية. يقع الكتاب في ١١٠٠ صفحة من القطع الكبيرة مقسمة إلى جزئين، ويشتمل الجزء الأول على اثنين وعشرين فصلاً بالإضافة إلى ملحق للفصول الرابع والخامس والسادس، يشتمل على النقوش النبطية التي اكتشفها دوتي في مدائن صالح، وهذه كوها مترجمة بواسطة مترجمين متخصصين، ثم يختتم دوتي الجزء الأول بملحق عن العمارة النبطية المنحوتة في مدائن صالح. تقع فصول الجزء الأول من الكتاب تحت اثنين وعشرين عنواناً: أرض الصوان، عمون وموآب، جبل إيدوم، صوان الجزيرة العربية، رحلة الحج في الجزيرة العربية، مدائن صالح، مدائن صالح والعلا، العلا والخريبي والمدائن، عودة الحج، حياة العرب الرحل في الصحراء، الحياة في القرية الجائلة، البدو الرحل في الصحراء، زيارة إلى تيماء، الفُكارة يتجولون هاربين في ديرة اخرى، السلام في الصحراء، زيارة المدائن مرة ثانية، ممر الحرّة، التجوال فوق الحرّة مع المواءهيب، حياة البدو الرحل في الحرّة، الأعراب يتركون

التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكرة جداً ومع الأيام أخذ الإيمان يعمر قلبه، ويملك عليه نفسه فيتجلى له فراغ الآلة الأخرى كان مُحَمَّدٌ (ﷺ)، يأخذ بأسباب التحنث والتنسك، ويسترسل في تأملاته حول خلاصه الروحي لئال بطولها... لقد تحقق عنده ان عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة، فكان يضح في أعماق نفسه بهذا السؤال: إلى متى يمدهم الله في ضلالهم، مادام، قد تجلى اخر الأمر للشعوب الأخرى بوساطة أنبيائه، وهكذا نضجت الفكرة في نفسه، أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة، رسالة النبوة^(٦١)، إن هذه الافتراءات هي تكرار لما كان يدعيه مشركو العرب الذين عاصروا النبي مُحَمَّدٌ (ﷺ)، فالله نفى عن نبيه كل ذلك ورد عليهم بقوله: ”وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى“^(٦٢)، فقد قالوا إنه مجنون وقالوا شاعر وكاهن، وغيرها من الاتهامات، ولكنهم غلفوها بغلاف علمي حتى تكون أكثر قبولاً ورواجاً، ويصووا إلى ما يصبون إليه. ويذكر دوتي عن النبي مُحَمَّدٌ (ﷺ)، قالاً: «كان يدور في داخله إحساس بمهمة سماوية أو إن شئت فقل مقدسة في أعماق روحه الهادئة»^(٦٤). وكان دوتي يجيب على كل من يدعو للإيمان بنبوَّة مُحَمَّدٌ (ﷺ)، ورسالته بـ”كل مخلوق رسول الله“^(٦٥). قدم المُستشرق تشارلز دوتي في كتابه تفسيراً خاصاً لنبوَّة النبي مُحَمَّدٌ (ﷺ)، حيث يرى أن الشعور بالنبوَّة نابع من داخل النبي نفسه نتيجة تأملاته العميقة، وليس وحياً خارجياً من الله تعالى. هذا التفسير يتجاهل حقيقة الوحي كما تؤمن بها الأمة الإسلامية، ويتخزل

الدور الجيو-سياسي للمُستشرقين والرحالة

ثالثاً: رؤية دوتي لنبوَّة النبي مُحَمَّدٌ (ﷺ): بين التأويل البشري والإيمان بالوحي

تشير الدراسات النقدية لرحلات دوتي وكتاباتة إلى ان فهمه لشخصية النبي مُحَمَّدٌ (ﷺ)، كان يفتقر إلى التماسك والوضوح، وقد تبين لي انه لم يكن له موقفاً محددًا في ذلك، والسبب الرئيسي حسب بحثي بشخص الرحالة واستقراء كتاباته تبين ان تأثره بالمُستشرقين ودراساتهم في تلك الفترة، كما ذكر الدكتور لخضر شايب: ”بأن رؤية المُستشرقين للنبي مُحَمَّدٌ (ﷺ)، في القرن التاسع عشر لم تحدد مسارها، فقد تفاوتت آراء المُستشرقين في شخصية النبي (ﷺ)، تبعاً لاختلاف تصوراتهم عن الإسلام في تلك الفترة تحديداً، وذلك بسبب التطور الملحوظ في الدراسات الاستشراقية“^(٥٩)، أو تمسكه بمسيحيته وتعصبه الديني من جانب آخر، فالقارئ لكتابه يختار لموقفه تجاه النبي مُحَمَّدٌ (ﷺ)، فتجده نارة يحترم شخصه، ويدي إعجاب به بعقليته، وشجاعته، وتواضعه، وفي كثير من المرات يسئ إليه. فبروكلمان يذكر: «ان النبوَّة كانت امراً يتوقعه الرسول والذي كان يكلمه صديق له»^(٦٠)، ويذكر في موضع اخر: «إن مُحَمَّدًا (ﷺ)، قد وصل إلى اتخاذ قرار ادعاء النبوَّة بعد مرحلة تفكير عميق واع، ومقارنة واضحة بين عقائد الوثنيين المشركين وبين العناصر التوحيدية التي استقاها من مصادر متعددة»^(٦١).

ويذكر كارل بروكلمان في موضع اخر:
«وأغلب الظن أن مُحَمَّدًا (ﷺ)، قد أنصرف إلى

نظرة ازدراء واحتقار، وهذا؛ لأن إباءهم أساءوا
معاملة الرسول^(ص)، فالاختلافات التي قدمها
حول قريش وجمعها قوارش وايضاً حول نسب
قريش من جهة امه وذكر ايضاً ان قريش هم من
البدو الفقراء. الاختلاف الأول الذي قدمه حول
قريش، فقريش اسم قبيلة من قبائل العرب، وفي
اللغة عند النسبة إليها، يقال: قُرشي، وقريشي، قال
الشاعر: (بكل قريشي عليه مهابة سريع إلى داعي
الندى والتكرم)، وكون اللفظ قريشي، فجمعها
هو: قرشيين، وقرشيون، وليس (قوارش)، كما
ذكر دوتي^(٦٩). اما الاختلاف الثاني الذي جاء به
دوتي هو اخطأ بجعل نسب النبي مُحَمَّد^(ص)،
لقريش من جهة الأم وهذا اعتقاد غير صحيح
فالرسول مُحَمَّد^(ص)، ينتمي لقريش من جهة امه
وابوه. فالرسول اسمه (مُحَمَّد بن عبد الله، بن عبد
المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن
كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن
فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمه،
بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد،
بن عدنان، وينتهي نسب عدنان إلى إسماعيل بن
إبراهيم^(٧٠). وام النبي الأكرم هي «امنة بنت
وهب بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب، بن مرة،
بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر ووالدها
سيد بني زهرة نسباً وشرافاً»^(٧١)، فأمه امنه بنت
وهب وابوه عبد الله بن عبد المطلب يجتمعان في
كلاب بن مره ويفترقان من ولده^(٧٢). الخطأ الثالث
هو ادعاء دوتي ان قريش من البدو الفقراء، وان
الناس تنظر اليهم بدونية^(٧٣)، فالهدف من كل ذلك

النبوة في تجربة بشرية داخلية. غير أن هذا المنظور
يتناقض مع اعتراف عدد من المستشرقين وعلماء
الغرب المنصفين الذين أقروا بصدق النبي مُحَمَّد^(ص)
وبأن الوحي الذي تلقاه كان إلهياً حقيقياً لا
بجمال لإنكاره. فهؤلاء المنصفون قدّموا شهادات
موضوعية تعترف بحقيقة النبوة المحمدية وتناقض
الرؤية التبسيطية التي قدمها دوتي. وبالتالي، يمكن
القول إن قراءة دوتي تمثّل نموذجاً للفهم الغربي
الذي يحاول تفسير النبوة ضمن إطار مادي بحت،
بينما توجد قراءات أخرى أكثر إنصافاً وتعترف
بالبعد الإلهي في حياة النبي مُحَمَّد^(ص) ورسالته، ومن
ذلك: يذكره المستشرق «أدوار موتيه» في مقدمة
ترجمته الفرنسية للقرآن: «كان مُحَمَّد نبيّاً صادقاً كما
كان أنبياء بني إسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى
رؤيا ويوحى إليه وكانت العقيدة الدينية وفكرة
وجود الألوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في
أولئك الأنبياء أسلافه»^(٦٦). وكذا يذكر المستشرق
الانجليزي «اللورد هدلي»، وقد اهتدى الإسلام:
«إن رسالة مُحَمَّد إلهية صادقة لا ريب فيها، هدى
للمتقين وأوحى الله بها إليه، فجاءت مخففة لصرامة
أحكام التوراة مكملته لكتاب المسيح»^(٦٧).
ومن المآخذ السلبية التي تؤخذ على دوتي عندما
يتحدث عن نسب النبي مُحَمَّد^(ص)، هي ضعف
مصدريته عن الإسلام وضحالة تلك المعلومات
التي يتلقاها، وكذلك فكرته المغلوطة عن نسب
النبي الأكرم، فيذكر: «القريش وجمعه القوارش؛
أهل مُحَمَّد من ناحية الأم هم اناس من البدو
الفقراء الذي ينظر الناس إليهم في منطقة مكة

ورهنه فيقال لهم: بنو هاشم، او الهاشميون، وكان أسم ام مُحَمَّد آمنه، التي يمكن تتبع سلسلة نسبها في اسرة مميزة في القبيلة نفسها^(٧٧). تُعاني المنهجية التي اعتمدها «دوتي» في تحليل سيرة الرسول مُحَمَّد (ﷺ) من قصور واضح؛ إذ تعتمد على ادعاءات تفتقر إلى مصادر موثوقة وأدلة داعمة، مما يجعل استنتاجاته غير موضوعية. كما أن أعمال عدد من المُستشرقين تتسم بعدم الدقة وتحيد عن الموضوعية في بعض الأحيان. وهذا يُبرز أن الانتقادات الموجهة إلى شخصية النبي (ﷺ) تبين تفتقر إلى العمق والقوة، ولا تقوم على أساس متين. وفي النهاية، فإن مثل هذه الادعاءات لا تُقلل من مكانة النبي، ولا تؤثر على إيماننا كمسلمين برسالته العالمية الخالدة. اما الكاتب الأمريكي جون ديفنورت حيث يذكر: «يظهر نسب مُحَمَّد الوراثي كأمرأء في بلدهم ليس فقط في المعاملات التجارية الخارجية والمحلية، ولكن أيضًا حكمهم وسيادتهم بالرأي لما يتميزوا به من حكمة وأمانة»^(٧٨). فالمنصفين كثير امثال المُستشرق الإنجليزي السير موير حيث ذكر: «إن مُحَمَّدًا نبي المسلمين لقب بالأمين منذ الصغر بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه وحسن سلوكه، ومهما يكن هناك من أمر فإن مُحَمَّد أُسمى من أن ينتهي إليه الواصف ولا يعرفه من جهله وخبير به من أمعن النظر في تأريخه المجيد»^(٧٩). في النهاية لا تترك هذه البراهين مجالاً للشك في تهافت ادعاءات دوتي ضد النبي مُحَمَّد (ﷺ).

التقليل من شأن النبي مُحَمَّد (ﷺ)، وقدح مكانته وهذا الأمر استحدثه المُستشرقون على نبي الرحمة، ومن مضى على شاكلتهم في الطعن، سواء طعنهم في حسبن ونسبه او انه من اسرة اجتماعية فقيرة كون بعض اهل مكة آنذاك يرعون الأغنام وهذا في رأيهم تدني المستوى الاجتماعي^(٧٤)، فالرسول الأكرم من اشرف البيوت حسبًا ونسبًا، من اباء كرام كلهم سادة في قومهم، ولهم مكانة عظيمة بين العرب، وقد اشتهروا بالحكمة والشجاعة والكرم، فيذكر ابن هشام: «فرسول الله مُحَمَّد (ﷺ)، أشرف ولد آدم حسبًا، وأفضلهم نسبًا من قبل أبيه وأمه»^(٧٥). إن الادعاءات التي يطرحها بعض المُستشرقين حول الخلفية المتواضعة للنبي مُحَمَّد (ﷺ) تفتقر إلى الدقة التاريخية. فوفقًا للمعايير الاجتماعية السائدة في شبه الجزيرة العربية آنذاك، كان انتماء النبي (ﷺ) إلى قبيلة قريش، التي تمتعت بنفوذ اقتصادي وسياسي كبير، يمثل مكانة مرموقة. كما أن بني هاشم، الفرع الذي ينتمي إليه النبي، كانوا يتمتعون بمكانة خاصة داخل قريش، تتجلى في شرف السيادة خلال الأشهر الحرم وإدارة مهمة سقاية الحجيج. هذه المؤشرات جميعها تدحض فكرة انخفاض المستوى المعيشي أو الاجتماعي لعائلة النبي (ﷺ)، بل تؤكد على مكانته الرفيعة بين قومه. «ولا على الضعف المالي كما زعم بذلك الرحالة دوتي»^(٧٦). فهناك رأي لاحد القساوسة الغربيين، حيث يقول: «هاشم هو الجد الأعلى لمُحَمَّد، وكان أكثر الرجال تميزًا في سلسلة نسب مُحَمَّد، فأليه نسب اشرف الخلق مُحَمَّد (ﷺ)،

الخاتمة

للدراستات الاستشرافية إسهامات جلية في دفع عجلة المعرفة، من خلال تطوير وتنمية المناهج البحثية، تشجيع حركة البحث والتحقيق العلمي، وربط الصلة بين المناهج الغربية والمناهج الشرقية، وتعميق الصلة بين علماء الاستشراق والعلماء العرب والمسلمين، والمُستشرقين ليسوا في درجة سواء، فبعضهم كان يتميز بموضوعية علمية، وبدقة في بحوثه، ودافع بعضهم عن التراث العربي الإسلامي بحماسة، ولا نستطيع ان ننكر أن الدراسات الاستشرافية أسهمت في تعريف الغرب المسيحي بحضارة الإسلام، ووقفت في وجه حملات التضليل التي كانت سائدة في الغرب ضد الحضارة العربية والإسلامية، كذلك ساهم الاستشراق البريطاني مساهمة كبيرة في حفظ التراث العربي وتحقيق المخطوطات وكانت له بصمة رائدة في حفظ التراث الحضاري الإسلامي.

أما بالنسبة لرحلات الغربيين إلى الجزيرة العربية، ومنها رحلة تشارلز دوتي التي كانت جزء من منظومة الاستشراق والتبشير، وتقوم العلاقة بين الرحلات والاستشراق على التبادلية واعتماد الرحالة على التراث الاستشراقي في تشكيل تصوراتهم، واستفادة المُستشرقين من نتاج تلك الرحلات في كتاباتهم، أيضاً هناك معلومات جيدة ومهمة في كتاب دوتي يرجى الاستفادة منها، ومن

العدل والأنصاف الاعتراف بإيجابيات كتابه، التي تجلت في وصف الصحراء والحياة البدوية العربية، ووصف عادات العرب في المأكل والمشرب، كما ان كتاب (ترحال في صحراء الجزيرة العربية)، لا يمكن الاعتماد على المعلومات الواردة فيه، ولا سيما التي لها علاقة بالإسلام والمسلمين، إذ أن تأثر دوتي بكثير من المُستشرقين ظاهر في كتابه، إلى جانب العيوب المنهجية التي ظهرت في كتاباته، كذلك لا يمكن الاعتماد عليه في مسألة دراسته شخصية الرسول مُحَمَّد (ﷺ)، فدوتي ينكر نبوة مُحَمَّد ويشكك بها، ايضاً من خلال كتابات دوتي يتبين عدم ايمانه بنبوة خاتم المرسلين مُحَمَّد (ﷺ)، وانه نبي مرسل من عند الله إلى الناس كافة، فانه يرى انه ارسل إلى العرب خاصة، ولكنه لم يصرح، كل هذه الشبهات هدفها التشويه والتزيف، فغياب الأدلة والمصادر التي يستند عليها سببت خرق وخلل منهجي في مسألة كتابته عن خاتم الأنبياء والمرسلين.

الهوامش

١. ناجي، عبد الجبار، الاستشراق في التأريخ، ص ٤٧.
٢. العقيقي، نجيب، المُستشرقون، ج ١، ص ١٩.
٣. حسين، محسن، محمد، الاستشراق برؤية شرقية، ص ٤٥.
٤. حسين، محسن، محمد، الاستشراق برؤية شرقية، ص ٤٥.
٥. الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الاستشراقية، ص ٤١.
٦. ناجي، عبد الجبار، الاستشراق في التأريخ، ص ٦٣.
٧. بارت، رودي، الدراسات العربية والاسلامية في الجامعات الألمانية، ص ١١.
٨. سودرن، ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٦.
٩. السامرائي، قاسم، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص ١٩.
١٠. علي، جواد، تاريخ العرب في الإسلام، ص ٢٦.
١١. حسين، محسن، الاستشراق برؤية شرقية، ص ٤١.
١٢. النملة، علي ابراهيم، إسهامات المُستشرقين في نشر التراث العربي الإسلامي، ص ٣٤.
١٣. النملة، علي ابراهيم، إسهامات المُستشرقين في نشر التراث العربي الإسلامي، ص ٣٦.
١٤. الخطيب، رشا عبد الله، الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية البريطانية، ص ٢٢.
١٥. غزوي، محمد محمد، القرآن في الدراسات الاستشراقية الألمانية، ص ٣٣.
١٦. عبد الموجود، احمد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ص ٧٠٧.
١٧. ال سعود، نايف بن نبيان، المُستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، ص ١٢٥.
١٨. الغمري، رياض بن حمد بن عبد الله، مناهج المُستشرقين ومواقفهم من النبي (ﷺ)، ص ١٦٦.
١٩. مراد، يحيى، افتراءات المُستشرقين على الاسلام والرد عليها، ص ٥٦.
٢٠. الغمري، رياض بن حمد بن عبد الله، مناهج المُستشرقين ومواقفهم من النبي (ﷺ)، ص ١٦٨.
٢١. الخطيب، رشا عبد الله، الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية البريطانية، ص ٢٣.
٢٢. المرجع نفسه، ص ٢٤.
٢٣. اندلسي، محمد، الترجمة الأدبية من العربية عند المُستشرقين "المدرسة الفرنسية انموذجاً" ص ٧٥.
٢٤. مراد، يحيى، اساء المُستشرقين، ص ٣٠٢.
٢٥. الخطيب، رشا عبد الله، الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية البريطانية، ص ٢٥.
٢٦. النملة، علي ابراهيم، إسهامات المُستشرقين في نشر التراث العربي الإسلامي، ص ٣٥.
27. Auctherlonie·paul, collections in British libraries on middle eastern and Islamic studies, p25.
٢٨. الخطيب، رشا عبد الله، الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية البريطانية، ص ٩٠.
٢٩. الديب، عبد المجيد، تحقيق التراث العربي "منهجه وتطوره"، ص ١٩٤.
٣٠. المرجع نفسه، ص ١٤.
٣١. الجراخ، عباس هاني، تحقيق المخطوطات (مناهجه-قواعده-أعلامه)، ص ١٢.
٣٢. الخطيب، رشا عبد الله، الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية البريطانية، ص ١٠١.
٣٣. المرجع نفسه، ص ١٠٢.

- m. DouGhty, p:99.
٣٤. خفاجي، طلعت فهمي، الاستشراق والمستشرقون، ص ١٠٠.
٣٥. الخطيب، رشاد عبد الله، الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية البريطانية، ص ١٠٤.
٣٦. خفاجي، طلعت فهمي، الاستشراق والمستشرقون، ص ١٣١.
٣٧. النملة، علي بن ابراهيم، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين، استقراء للمواقف، ص ٣٩.
٣٨. المرجع نفسه، ص ٦٣.
٣٩. غراب، احمد عبد الحميد، رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٤٢.
٤٠. ناجي، عبد الجبار، الاستشراق في التأريخ، ص ١٨٥.
٤١. النملة، علي بن ابراهيم، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين استقراء للمواقف، ص ٣٩.
٤٢. العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج ٣، ص ٢٦٩.
٤٣. نفس المرجع، ص ٢٧٠.
٤٤. زيمه، ألبرخت، شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين في مائه عام (١٧٧٠-١٨٧٠م)، ص ٨٩.
٤٥. سعيد، ادوارد، الاستشراق (السلطة ... المعرفة)، ص ٦٦.
٤٦. دوتي، تشارلز، ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ج ١، ص ٦١.
٤٧. بيدول، زوين، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، تر: عبد الله ادم نصيف، ص ٧٧.
٤٨. سعد الله، مكي، البقاع المقدسة في الرحلة الغربية (رحلة في بلد العجائب - حج مسيحي إلى مكة والمدينة)، مجلة دراسات استشرافية، ع ١٦، ٢٠١٨م، ص ٤١.
49. HOGARTH, D.G, the life of GHarles
٥٠. النجمي، محمد، ترحال الشاعر الإنكليزي تشارلز دوتي في صحراء الجزيرة العربية، ص ٢٢.
٥١. السماري، ابراهيم عبد الله، ثقافة مكة في ادب الرحلات، ص ٣٤.
٥٢. دوتي، تشارلز، ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ص ٤٩.
٥٣. المرجع نفسه، ص ٥٨.
٥٤. الرشدي، حياة، ملامح من الحياة في حائل من خلال رحلة تشارلز دوتي، ص ٤٤.
٥٥. النجمي، محمد، ترحال الشاعر الإنكليزي تشارلز دوتي في صحراء الجزيرة العربية، ص ٣٧.
٥٦. دوتي، تشارلز، ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ص ٤٨.
٥٧. الرشدي، حياة، ملامح من الحياة في حائل من خلال رحلة تشارلز دوتي، ص ٤٦.
٥٨. دوتي، تشارلز، ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ص ٥١.
٥٩. نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، ص ٩٢.
٦٠. تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣.
٦١. عميرة، عبد الرحمن، الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال المستشرقين، ص ١١٢، ينسبها في الكتاب إلى كارل بروكلمان ولكن لم يوثق، ولم اجدها في كتاب بروكلمان بل وجدت كلاماً بالمعنى.
٦٢. تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤.
٦٣. سورة النجم، ٣-٤.
٦٤. ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ج ١، ص ١، ص ٢٣٨.

٦٥. ترحال، ج ٢، مج ٢، ص ٧٧.
٦٦. رضا، محمد رشيد، الوحي المحمدي، ص ٣٧.
٦٧. باز، عبد الكريم علي، افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التأريخ الإسلامي، ص ١٠١.
٦٨. ترحال، ج ٢، مج ٢، ص ٢٨٧.
٦٩. ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ٣٣٦.
٧٠. ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ١.
٧١. المرجع نفسه، ج ١، ص ١١٠.
٧٢. الطهطاوي، رفاة رافع بن بدوي بن علي، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، ج ١، ص ٢٠.
٧٣. ترحال، ج ٢، مج ٢، ص ٢٨٧.
٧٤. صديقي، محمد ياسين مظهر، الهجمات المغرصة على التأريخ الإسلامي الهجمات المغرصة على التأريخ الإسلامي، ص ٢٧.
٧٥. ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ١١٠.
٧٦. صديقي، محمد ياسين مظهر، الهجمات المغرصة على التأريخ الإسلامي، ص ٢٨.
٧٧. بوش، جورج، محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس امبراطورية المسلمين، ص ١٣٨.
٧٨. ديفنورت، جون، دفاع واعتذار لمحمد (ﷺ)، ص ٤٥.
٧٩. عظيمة النبي (ﷺ)، ص ١٠.

The Geopolitical Role of Orientalists and Travelers in Paving the Way for Western Projects in the Islamic World (An Analytical Study)

Assistant Professor Anwar Karim Najm Al-Tae
Al-Muthanna University / College of Engineering

Abstract

For centuries, the phenomena of Orientalism and travel have constituted one of the most important sources of knowledge upon which Western civilization has relied in shaping its perceptions of the “East.” Despite the academic and scientific character often promoted around these missions and studies, the line between purely intellectual pursuits and the fulfillment of geopolitical and intelligence agendas has often been blurred. The Orientalist or traveler was not merely an isolated researcher in his ivory tower, or a mere adventurer seeking thrills. Rather, he could be analyzed—in many cases—as a mobile, autonomous unit. These individuals served as advanced “sensors” for governments, geographical societies, and European colonial institutions, collecting raw data from the field and transforming it into practical “intelligence cards.” These “cards” covered a wide range of topics: topography and routes, maps of wealth and resources, anatomy of the social, political, and religious structures of societies, and an assessment of the strengths and weaknesses of nations and civilizations. From this perspective, this study came to provide a clear picture of British Orientalism, which constituted a unique model that embodies the complex interaction between knowledge and power, where the motives of scientific curiosity were mixed with the requirements of colonial administration and the interests of the empire. This research is divided into an introduction and three main sections.

The first section dealt with the early beginnings of Orientalism, as Orientalism represented a complex intellectual and cultural phenomenon, embodied through successive historical stages, the most prominent of which was the stage of emergence and establishment, which was linked to the reli-

gious, political and intellectual contexts of medieval Europe. This section seeks to trace the first roots of Orientalism.

The second section included, firstly: Between criticism and preservation, the other face of British Orientalism in dealing with the Islamic heritage. This section addresses the dual role of British Orientalism, which combined historical-textual criticism of the Islamic heritage on the one hand, and efforts to preserve, investigate and publish its basic texts on the other hand. Secondly, it included European journeys and Orientalist mediation. This section focused on the role of the journeys of British explorers and Orientalists and others to the Arabian Peninsula. Arabic in the nineteenth century in shaping Western knowledge about the region. If these journeys were not merely individual adventures, but represented a cultural mediation through which geographical, social, and religious details were conveyed to the European reader and political planner, contributing to the construction of a massive colonial archive. Third, which included journeys of an intelligence and espionage nature that served political interests, this requirement reveals the hidden face of Orientalism represented by the journeys carried out by spies and explorers under a scientific or religious cover.

The third section included Western travelers to the Arabian Peninsula with scientific motives and contributions to Orientalist knowledge, as it included discussion of travelers who worked in a dim light to serve colonial interests, while others set out with purely or almost purely scientific motives, seeking geographical, linguistic, and archaeological knowledge. This section sought to analyze the contributions of this category of scientific travelers to expanding the horizons of Orientalist knowledge about the Arabian Peninsula. First, it includes a case study of Charles Doughty - an in-depth analysis of the personality and experience of the English traveler through three axes: first, family background and academic formation. This axis investigates the social and cultural environment in which Doughty grew up, his influence by the romantic spirit and the classical and geographical interests of his time, and how these factors paved the way for his exceptional journey.

Secondly, the cognitive structure of the book *Travels in the Arabian Desert*, as this section analyzes the cognitive structure of his encyclopedic journey, and how Doughty combined in his book a solid literary narrative with precise anthropological observation, geographical survey, and linguistic investigation, which produced a hybrid text that went beyond being a mere travel report. Third: Doughty's vision of the prophethood of Muhammad (peace be upon him) between human interpretation and belief in revelation, as this section discusses Doughty's complex conception of the Prophet Muhammad (peace be upon him) and Islam, which distinguished between the historical humanism that attempted to understand the prophetic phenomenon in its societal context, and the deep Christian conviction that prevented him from transcending his theological framework, making him a model for the conflict between method and tendency in the thought of many Orientalists. There is also a conclusion that includes the most prominent results that the researcher reached through the research topic.